

هل يعد العمل كمراسل في مصر أخطر مهنة في العالم؟

كتبه كريستين تشيك | 18 يناير، 2017



ترجمة وتحرير نون بوست

التقيت بـ”عبد الله الفخراي” في اليوم الأول من الانتفاضة المصرية ضد حسني مبارك، في كانون الثاني/يناير من سنة 2011م. وكانت الشرطة حينها تقوم بمهاجمة المحتجين، حيث تناثرت قنابل الغاز المسيل للدموع في الهواء، قبل أن تسقط بين الحشود. أما أنا فركضت، لكن ليس بالسرعة الكافية، لذلك لحقني أثر الغاز، وبدأت الدموع تنهمر على وجهي.

وبينما كنت ألهث، ظهر شاب بجاني وساعدني لأبتعد عن الدخان، وأعطاني كوفيته البيضاء والسوداء، مشيرا لي بأن ألفها حول رأسي لأغطي أنفي وفمي.

وعندما أصبحت قادرة على التكلم مرة أخرى، سألته عن سبب تلبية عدد كبير من الناس دعوة الاحتجاج، فأجابني قائلا: “هذه هي نتيجة الضغوط التي تراكمت داخلنا بسبب الفساد والقمع، وبسبب عدم وجود حريات”. وعندما سقطت عبوات الغاز المسيل للدموع بالقرب منا، هربنا بعيدا.

كان شعر “الفخراي” سميكا ومجعدا، وكانت له لحية خفيفة، وأخبرني حين التقيته أنه كان يدرس الطب في جامعة “عين شمس”، لكنه لم يكن راضيا عن مجال دراسته. وكنت في ذلك الوقت أقوم بنقل ما يحدث في المظاهرات، وقبل أن أغادر لأكتب مقالتي، أعطيت كوفيته.

وفي اليوم التالي، وجد “الفخراي” حسابي على (فيسبوك). وعلى مدى الأشهر القليلة التي أعقبت

ذلك، التقينا في كثير من الأحيان؛ إذ عادة ما أجده في المستشفى الميداني خلال الاحتجاجات، حيث كان يرسخ تدريبه الطبي لعلاج الجرحى.

وبما أنه مولع بأن يكون جزءا من موجة التغيير التي تجتاح بلاده، قال إنه بدأ العمل مع مبادرة صحافة المواطنه "رصد"، والتي بدأت سنة 2010م، كصفحة على موقع (فيسبوك)، وذلك في محاولة لتحدي خطاب النظام الذي سيطر على وسائل الإعلام. وأصبحت هذه الصفحة تقدم خدمات إخبارية لمتابعيها، الذين بلغ عددهم الملايين، كما أصبح لها فروع في بلدان أخرى.

أما الآن، وبعد ست سنوات، يقبع "الفخراي" في زنزانه شمال القاهرة. وقد حكم عليه بالسجن مدى الحياة في سنة 2015م، ويخضع الآن لإعادة المحاكمة، بتهمة "نشر معلومات كاذبة والانتماء إلى منظمة محظورة"، و "تشكيل غرفة عمليات لتوجيه جماعة الإخوان المسلمين ضد الحكومة".

وكنتيجة لذلك، أصبح "الفخراي" أكثر اكتئابا، بعد أن قضى أكثر من ثلاث سنوات في السجن، وهو يواجه الآن احتمال البقاء لعقود في سجن "وادي النطرون" الذي يقبع فيه الآن، حيث تدهور وضعه الصحي.

تجدر الإشارة إلى أن "الفخراي" هو واحد من بين 25 صحفيا على الأقل، يواجهون عقوبة السجن حاليا في مصر، بسبب عملهم، وذلك وفقا للجنة حماية الصحفيين

وبعد الانقلاب الذي نفذته لإبعاد "محمد مرسي" في سنة 2013م، بدأ "عبد الفتاح السيسي" أقسى حملة شهدتها مصر ضد الصحافة منذ عقود، حيث داهمت السلطات القنوات التلفزيونية، وقامت بإغلاقها، وفرضت رقابة على الصحف، واعتقلت الصحفيين بطريقة تعسفية. ومن الجدير بالذكر أنه قد تم قتل سبعة صحفيين، ستة منهم قُتلوا بالرصاص أثناء تغطية المظاهرات، ومن المؤكد -تقريبا- أنهم قتلوا على يد قوات الأمن. هذا إضافة إلى أن الصحفي السابع قد قُتل عند نقطة تفتيش لقوات الأمن أيضا، وفقا لحصيلة لجنة حماية الصحفيين.

ومع ذلك، فإن الصحفيين السجناء لا يلقون اهتماما كافيا، خاصة أولئك الذين يعملون في وسائل إعلام متعاطفة مع "مرسي" و "الإخوان"، مثل "الفخراي". وخلافا لصحفي قناة الجزيرة الإنجليزية، الذين يحمل اثنين منهم جنسيات أجنبية، لم يكن هناك أي حملة عالمية لإطلاق سراح الصحفيين المصريين، ولم يتول أحد المحامين المشاهير قضيتهم، ولم يصرح أي دبلوماسي بأي شيء يتعلق بهم.

وفي رسالة كتبها "الفخراي" من داخل السجن سنة 2015م، قال: "كنت ساذجا -على الأقل في الأيام الأولى بعد أن تم اعتقالني- اعتقدت أن العالم سينتفض للدفاع عني".

قلب سخي

في الشهر الذي تلا الانتفاضة، التقيت بـ"الفخراي" في المظاهرات، والتقينا أيضا في المقاهي؛ للحديث عن الانتفاضة المصرية. وكان يبدو عليه التحمس والتفاؤل، على الرغم من تزايد المؤشرات على أن المجلس العسكري الذي حل محل "مبارك" كان غير مهتم بالإصلاح الديمقراطي في مصر.

وعلى الرغم من أننا عرفنا بعضنا منذ نحو أربعة أشهر فقط، إلا أنني شهدت على كرم "الفخراي" للمرة الثانية. ففي آيار/مايو من سنة 2011م، تم تنفيذ هجوم على كنيسة "إمبابة"، وهي منطقة مكتظة وشوارعها ضيقة. وأصبح هناك توتر في تلك المنطقة بعد هذا الهجوم. وكما سبق ونقلت، كنت أنا واثنين من زملائي، وكان هناك رجلان يلاحقنا. ف شعرنا بأنّ الوضع أصبح خطرا، وقبل أن نجد مكانا آمنا، تضاعف عدد الذين يلاحقونا، وأصبحوا حشدا. وقبل أن يتمكنوا من الإمساك بنا، دخلنا زاوية ووجدنا مجموعة من الجنود الذي كانوا يؤمنون المنطقة، وسمحوا لنا أن نختئ قربهم. وبذلك أصبحنا في مأمن.

لكنني بقيت محاصرة في "إمبابة"، وأدركت أنه سيكون من الصعب أن أخرج منها وحدي، فقامت بالاتصال بـ"الفخراي"، وشرحت له وضعي، فقال لي: "إبقي هناك، أنا قادم الآن". وفي غضون نصف ساعة، وصل واصطحبنا إلى مكان آمن.

إن معظم أصدقاء "الفخراي" لهم قصص مشابهة؛ فقد مكنته شخصيته الجذابة من تكوين شبكة صداقات واسعة، الأمر الذي كان مفيدا بالنسبة لشبكة إخبارية مثل "رصد"، إذ كان دور "الفخراي" الرئيسي هو تواصل الشبكة مع مجموعات خارجية، مثل وكالات الأنباء التركية والألمانية، التي عملت مع الشبكة ودربت صحفييها، وقد سافر "الفخراي" في مناسبات عدة للمشاركة في مؤتمرات ودورات تدريبية في الخارج. كما عمل "الفخراي" على نشر معلومات عن التطورات في مصر في صفحات "رصد"، بما في ذلك صفحات (فيسبوك) و(تويتر)، والرسائل النصية للمشاركين في شبكة الهاتف المحمول.

وسرعان ما أصبح "الفخراي" من الأعضاء الرئيسيين في فريق "رصد"، حتى خلال مواصلة دراسته في مجال الطب. وكان يعمل بشغف، وبإبتسامة عريضة، حيث قال "خالد نور الدين"، أحد مؤسسي "رصد" ومديرها التنفيذي، متحدثا عن "الفخراي": "كان يأخذ دائما زمام المبادرة، ويمضي قدما، ويبحث عن فرص جديدة".

وقد شهدت رصد نمو سريعا. فقبل انتفاضة سنة 2011م، كان فريقها الأساسي يتكون من 22 شخصا، وكانوا ينشرون أخبارا يكتبها متطوعون في جميع أنحاء البلاد. ثم نجحت الشبكة في جذب 300-400 ألف متابع على (فيسبوك)، وارتفع هذا العدد إلى أربعة ملايين، خلال انقلاب حزيران/يونيو سنة 2013م، وذلك وفقا لـ"نور الدين". أما الآن، فهناك 10 ملايين متابع للصفحة.

ويعمل "نور الدين" الآن من تركيا، أما الصحفيون في مصر، فهم لا يستخدمون أسماءهم، حيث قال "نور الدين" إنّ تسعة صحفيين على الأقل من فريق "رصد" هم في السجن الآن. كما أنّ بعض أعضاء فريق "رصد" ينتمون إلى "جماعة الإخوان المسلمين"، إلا أن "الفخراي" أخبرني أنه لم يكن عضوا في الجماعة، وهو ما أكده لي "نور الدين" نفسه، حيث قال إنه لا توجد أي علاقة بين

“رصد” و”جماعة الإخوان المسلمين”. إلا أنّ التغطية التي تقوم بها الشبكة كانت متعاطفة مع الأحزاب الإسلامية، التي هيمنت على الانتخابات المصرية بعد الثورة، ومتعاطفة أيضا مع “مرسي”.

وكان “مرسي” أول رئيس منتخب في تاريخ مصر، وقد فاز بفارق صغير عن المرشح الذي كان مرتبطا بنظام مبارك المخلوع “أحمد شفيق”. وجاء هذا الفوز بعد استيلاء القوات العسكرية على جزء كبير من السلطة، حيث قاموا بحل البرلمان الذي يقوده الإسلاميون. إلا أن زعيم “الإخوان المسلمين” الذي أصبح رئيسا، بدا عليه عدم الكفاءة من خلال طريقة حكمه، هذا إضافة إلى العداء الذي تكنه له مؤسسات الدولة والصحافة. كما أن خطابه الطائفي، وخطاب أهم مؤيديه سبب نفور عدد كبير من غير الإسلاميين. وبحلول صيف سنة 2013م، وصل “مرسي” إلى طريق مسدود، وأصبح الشعب والإعلام المصري ضده.



“الفخراي” في جامعة “عين شمس” في القاهرة، حيث درس الطب.

حُب ... على خط النار

بينما كانت البلاد حوله تختار توجهها، وقع “الفخراي” في الحب. ففي إحدى ورشات عمل رصد في آيار/مايو سنة 2013م، تعرّف “الفخراي” على فتاة سافرت من بلدها، لتشارك في ورشة العمل. وسرعان ما وقع كلاهما في الحب، فقد اعتبرت الفتاة أن “الفخراي” ذكي ومنفتح ومحترم، وأنها أحببت أنه “كان دائما مبتسما”. أما “الفخراي” فقد “فُتن” بها، كما ورد على لسان “محمد سلطان”، الناشط الذي كان مسجوناً مع “الفخراي” لأكثر من سبعة أشهر. وسرعان ما بدأ الثنائي في إجراء محادثات طويلة كل يوم، بعد جلسات ورشة العمل. وقبل يوم واحد من مغادرتها القاهرة، فاجأ “الفخراي” الفتاة بأن عرض عليها الزواج. لكنها لم تعطه جواباً حينها، إلا أنهما استمرا في الحديث بشكل يومي، واتفقا أن يزور “الفخراي” عائلتها في آب/أغسطس 2013م؛ ليتعرف عليهم، وهي الخطوة التي تعد أساسية لطلب يدها.

إلا أن مسار السياسة المصرية لم يسمح بذلك. ففي نهاية شهر حزيران/يونيو من ذات العام، تظاهر مئات الآلاف من المصريين في جميع أنحاء البلاد، مطالبين باستقالة “مرسي”. وبعد أيام، سيطر السيسي -وزير الدفاع حينئذ- على البلاد.

وقد رحب العديد من المصريين باستيلاء الجيش على السلطة، قائلين إنه ليس “انقلاباً” بل “ثورة”، وواصفين أنصار “مرسي” بأنهم إرهابيون. إلا أن “الفخراي” اعتبر ما حدث ضربة للديمقراطية في مصر، وانتقدت “رصد” هذا الانقلاب بشدة.

وتم في تلك الفترة تشكيل معسكري احتجاج كبيرين في العاصمة. وامتلأ المعسكران بالآلاف المحتجين، الذين قالوا إنهم سيبقون إلى حين عودة “مرسي”. مع الإشارة إلى أن عددا كبيرا من هؤلاء هم من الإسلاميين، وكان خطابهم ناريا وطائفيا، كما أنهم ألقوا اللوم على المسيحيين في الانقلاب، ملمحين إلى إمكانية حدوث أعمال عنف إن لم يعد الرئيس “مرسي”. وكان أعضاء من “جماعة الإخوان

المسلمين"، التي كانت تحت الحصار بسبب النظام الجديد، هم الدعائم الأساسية للاعتصامات.

وقد ساعد "الفخراي" في تصوير فيديو في ميدان "رابعة"؛ فقد أحس، هو و"سلطان"، أن وسائل الإعلام الأجنبية تصور المتظاهرين على أنهم من أنصار "الإخوان" الغاضبين، وليسوا مواطنين مصريين محتجين على استيلاء غير ديمقراطي على السلطة من قبل الجيش. ولم يكن المواطن الأمريكي المصري "سلطان"، الذي ترعرع في الولايات المتحدة، عضواً في جماعة "الإخوان المسلمين"، على الرغم من أن والده كان أحد كبار قادتها. وقال سلطان إن "الفخراي" تحدث مع الصحفيين الأجانب الذين يعرفهم، وحثهم على تغطية الاحتجاجات.

وفي يوم 14 آب/أغسطس 2013م، شنت قوات الأمن هجوماً على "رابعة العدوية" دام 12 ساعة، وقُتل فيه أكثر من 1000 شخص، أغلبهم من المتظاهرين العزل، وذلك وفقاً لتقرير "هيومن رايتس ووتش". وكان "الفخراي" حاضراً خلال الهجوم، إلا أنه تمكن من الهرب، بعد أن أصيب إصابة خفيفة في ذراعه، وقد شهد على أسوأ مراحل المذبحة.

وفي ذات السياق، قال "عبد الرحمن"، شقيق "الفخراي"، إن مئات الجثث تراكمت بينما كان المتظاهرون يحاولون إيجاد مخرج، إلا أن قوات الأمن سيطرت على كل المنافذ.

وفي الحقيقة، فإن النظام الجديد أعلن الحرب على "جماعة الإخوان المسلمين" أساساً، وأيضاً على أولئك الذين انتقدوا الانقلاب. ولذلك، فقد شرع في تنفيذ حملة اعتقال واسعة النطاق، ونجح في اعتقال أعضاء من الجماعة، إضافة إلى صحفيين ومؤيدين للإسلاميين، ومنتظاهرين ونشطاء آخرين.

وفي الحقيقة، قضى "الفخراي" و"سلطان" 10 أيام بعيداً عن منازلهم، في محاولة لتجنب موجة الاعتقالات. فبقي كلاهما مع اثنين آخرين: "سمحي مصطفى/رصد"، و"محمد العدلي/أمجاد تي في"، في شقة ظنوا أنها آمنة. وكان "الفخراي" حينها بصدد تجميع لقطات ومعلومات عن عمليات القتل التي وقعت في رابعة العدوية، وذلك لفائدة "الشبكة الأوروبية المتوسطة لحقوق الإنسان".

إلا أن هروبهم لم يدم طويلاً، وذلك بسبب حاجة "سلطان" للملابس الداخلية نظيفة. فقد اشترى أصدقائه ملابس بينما كانوا في حالة فرار، إلا أنه لم يشتري؛ لأنه لم يكن يعرف مقاسه في مصر؛ بما أنه ترعرع في الولايات المتحدة وزار مصر في الصيف فقط. فاتجه الشبان الأربعة إلى شقة والدي "سلطان"، لأخذ بعض الملابس النظيفة، إلا أنهم اختاروا توقيتاً خاطئاً؛ فبينما كانوا في الشقة، اقتحمت الشرطة المكان بحثاً عن والد "سلطان"، الذي لم يكن موجوداً في المنزل حينها، إلا أن الشرطة أُلقت القبض على الشبان الأربعة.

عندما رأت صديقة "الفخراي" الخبر في (فيسبوك)، لم تصدق الأمر. فقد كان الاعتقال قبل أسبوع واحد من موعد لقائه بعائلتها. وقالت: "تم بدأت أفكر، كم من يوم سيستغرق الأمر؟ كنت أفكر، هل ذهب وراء الشمس؟".

وقد أعطاها "الفخراي"، قبل أيام قليلة من اعتقاله، كلمة السر لكل حساباته على مواقع التواصل

الاجتماعي، تحسبا لما قد يحدث. فقامت بإغلاق كل هذه الحسابات؛ لتمنع الشرطة من استخدام التصريحات التي أدلى بها في هذه الصفحات، وأضافت: “ومن ثم بدأت في البكاء إلى أن طلعت الشمس”.

خلف القضبان

عقب ستة أشهر من اعتقال “الفخراي”، كنت أتصفح صفحتي على (فيسبوك)، وما صعقتني هو أنني رأيت شيئا نشر على حسابه. فقد كنت أتابع قضيته في وسائل الإعلام، وفي ذلك الوقت كان محتجزا “احتياطيا”. ولذلك تساءلت كيف يمكنه نشر أي شيء على حسابه الخاص به من داخل السجن.

سارعت لإرسال رسالة له، أتساءل فيها عما إذا كان قد تم الإفراج عنه. وبعد ستة أيام أجابني “كلا، لا زلت في السجن” مرفقا جوابه برسم الوجه السعيد، كما أضاف “لدي هاتف ذكي في الزنزانة”. رغم ذلك لم أقتنع أنه هو من يخاطبني، وتساءلت عما إذا كانت أجهزة الأمن المصرية قد اخترقت حسابه. بدأ بعد ذلك بتقديم إثباتات وبراهين، ليؤكد لي أنه هو من يتواصل معي؛ مثل تذكيري بالمقهى الذي كنا نلتقي به، ولكن رغم ذلك لم أقتنع تماما بكلامه، فسألني “ماذا تريدون لتصدقيني؟”. ثم أرسل لي “الحصان في ميدان التحرير، أثناء حرب الجمل”.

وكان يقصد الحادثة التي وقعت في فبراير 2011م؛ حين أرسل النظام رجالا يمتطون الخيول والجمال، لاقتحام ميدان التحرير، في محاولة منهم لإبعاد المتظاهرين، وقد آتت هذه العملية أكلها. وفي اليوم التالي، التقيت بـ “الفخراي” هناك، وفي زقاق مظلم بالقرب من المستشفى الميداني، وجدنا حصانا ترك عقب انتهاء العملية. بدا على الحيوان الإرهاق والتعب، وكان رأسه يتدلى نحو الشارع فقمت أنا و”الفخراي” بمداعبة أنفه، وشعرنا بالأسف عليه.

وأخيرا، اقتنعت بأن “الفخراي” هو من يتحدث معي، ولذلك بدأنا الدردشة، وبدا لي أنه متقبل لوضعه؛ إذ إنه كان يستعمل “رموز الشاعر” ليشير إلى العقوبة المفروضة عليه.



الوصف: “الفخراي” و”سلطان” في ززانتهمما، في “طرة”، في خريف سنة 2013م، قبل أن يدخل “الفخراي” في إضراب عن الطعام.

ووفقا لـ “سلطان” فإن “الفخراي” حافظ على تفاؤله وسخائه طوال الأشهر السبعة الماضية، التي قضاها معه في السجن.

قبضت قوات الأمن على “سلطان”، وفي “حفلات الاستقبال” التي تقيمها الشرطة للمعتقلين الجدد -كما هو معروف في مصر- كُسرت يد “سلطان”، وعندما حاول “الفخراي” حماية صديقه المصاب، تعرض هو بدوره إلى الضرب المبرح.

قال "سلطان": "كنا ملقيان على الأرض، وكان المساعدون يدوسون علينا ويضربوننا. وفي محاولة منا لحماية أنفسنا كنا تلقائياً نتخذ وضعية الجنين. بعد كسرهم ليدي، كان عبد الله يتنقل هنا وهناك، وذلك ليتلقى الضربات بدلا عني ويحول دون أن يعيدوا ضربي على يدي".

كان "الفخراني" بارعا في توطيد علاقاته مع المساجين والحراس، على حد سواء، وذلك ليحظى ببعض الراحة هو وأصدقائه في الزنزانة. استطاع "الفخراني" الحصول على أحد الهواتف المهربة، كما استطاع حياكة خطة جريئة ليحصل على "كماشة"؛ ليجري عملية جراحية لذراع سلطان، للتخفيف من الآلام الشديدة التي كان يشعر بها. ولذلك كان يعرف بترحابه بالمساجين الجدد، وإيجاد سبل لهم، لتوفير حاجياتهم الأساسية.

بعد حوالي شهر من اعتقاله، أرسل "الفخراني" أول رسالة إلى صديقه، حيث كتب لها بعض الأبيات من إحدى الأغنيات الإسلامية القديمة "على الرغم من أن القدر فرقنا، القلب أرضكم، والحب يتوق إليكم". وفي وقت لاحق من تلك الليلة، اتصل "الفخراني" ب صديقه، ولأول مرة قالت له "اشتقت لك" فضحك "الفخراني"، ورد عليها "هل كان عليّ أن أعتقل لتقولي بأنك تشتاقين لي". على الرغم من أنها في ذلك الوقت لم توافق على عرض الزواج، إلا أنها قررت أن تواصل معه المشوار، ومن ثم قررت الزواج به. حيث صرحت لي "إنه خيار".

في الأشهر الأولى، كان "الفخراني" يتصل بها مرة في الأسبوع، وعندما استأجر -برفقة زملائه في الزنزانة- هاتفًا محمولًا مهربًا من سجين آخر، بمبلغ يقدر بـ45 دولارًا لليلة الواحدة، كان يهاتفها باستمرار، وقالت إنه كان دائما يخبرها أنه سيخرج سريعا، خاصة أنه صحفي؛ فلن تسكت كل المنظمات ووسائل الإعلام عن المظلمة التي ارتكبت في حقه.

وبحلول فبراير سنة 2014م، تمكن "الفخراني" وزملاؤه في الزنزانة من الحصول على هاتفين، ومنذ ذلك الوقت أصبح يتواصل مع صديقه بشكل يومي. ولكن كانت هذه الخطوة بمثابة مخاطرة؛ ففي إحدى المرات اكتشف الحراس الهاتف، أمضى "الفخراني" عقبها 10 أيام في زنزانة التأديب؛ وهي أن يتم وضع 10 مساجين في زنزانة مخصصة للحبس الانفرادي، كما يتم حرمانهم من الأغذية والملابس والأسرة.

ووفقا لـ "سلطان"، كان "الفخراني" في الأشهر الأولى من الاعتقال، يصارع من أجل أخذ القرار النهائي المتعلق بمستقبله مع صديقه؛ إما أن يواصل معها، أو أن ينهي العلاقة، فهو يواجه احتمال البقاء عقودا وراء القضبان. كان "الفخراني" على دراية كاملة بأنّ إنهاء العلاقة هو الحل الأنسب والمنطقي، "لكن قلبه لم يطاوعه"، فرغم محاولاته العديدة للحديث معها في الموضوع، إلا أنه لم يستطع، وهي أيضا، كانت حبها له يزيد في كل يوم يمر عليها.

الزج بالصحفيين في السجن

وتعرف قضية “الفخراي” إعلامياً بمحاكمة “غرفة عمليات رابعة”. وبالإضافة إلى “عبد الله”، كان هناك ما يفوق 50 شخصاً، ممن لهم خلفيات ومرجعيات مختلفة، ووجهت لهم نفس التهم. كان على الأقل خمسة منهم صحفيين وقادة سابقين من “جماعة الإخوان المسلمين”، مثل “محمد بديع” المرشد العام للجماعة في سنة 2013م.

في الواقع، كان إدراج قيادات “الإخوان” في قضية الصحفيين محاولة جلية من قبل النظام لجعل قضيتهم تتلخخ بجنون مكافحة “الإخوان” التي اجتاحت مصر غداة الانقلاب. وفي هذا الصدد صرحت “ياسمين شرم الرفاعي”، التي كانت لوقت ليس ببعيد تعمل لصالح “لجنة حماية الصحفيين” في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا: “إنهم كانوا يحاولون تشكيل الرأي العام وفق رغباتهم. فقد كانوا يريدون الخروج من موجة الصخب التي أعقبت حملة القمع”.

حضرت المحكمة المصرية حركة “جماعة الإخوان المسلمين” في أيلول/سبتمبر 2013م. ومنذ ذلك الحين، اعتقلت الحكومة الصحفيين والسياسيين المنتمين للجماعة، وهذا وفقاً لـ “لجنة حماية الصحفيين”.

اتهم “الفخراي” بـ “الانتماء إلى منظمة محظورة، ونشر أخبار كاذبة، وحياسة جهاز اتصال لاسلكي، وتشكيل “غرفة عمليات” لتوجيه جماعة “الإخوان المسلمين” للعمل ضد الحكومة أثناء فض اعتصام رابعة”.

وكباقي المحاكمات السياسية المصرية الأخرى، لم يقدم الادعاء إلا بعض الأدلة الواهية، ليدعموا التهم التي وجهوها للصحفيين. وكان الدليل الوحيد المقدم ضد “الفخراي” مجرد محضر استجوابه من قبل ضباط أمن الدولة. وأنشأت المحكمة لجنة فنية من الخبراء، لتقييم الصور ومقاطع الفيديو التي يقول العديد إنها ملفقة، لكن اللجنة خلصت إلى أنها لم تكن كذلك.

كان القاضي الرئيسي الموكل بالبت في القضايا “ناجي شحاتة”، الذي يتمتع بسمعة سيئة؛ إذ إنه حكم بإدانة الصحفيين التابعين لقناة “الجزيرة”، كما أنه حكم بالإعدام على مجموعة من المعارضين في السنوات الأخيرة.

وفي هذا الشأن قالت “الرفاعي” إن المحامين عندما قدموا حججهم للدفاع عن موكلهم “أدلى القاضي بتصريحات، قال فيها بأنه مقتنع بأن المتهمين مذنبون. وهذا يعطيك لمحة عن المظالم التي ترتكب”.

لم ينتظر شحاتة جميع المحامين لينهوا مرافعاتهم وأصدر في نيسان/أبريل 2015م حكماً، أدان فيه جميع المتهمين، الذين بلغ عددهم 51 متهماً. ومن بينهم 14 متهماً، حكم عليهم بالإعدام، ونجد من بينهم “بديع”، ووالد “سلطان” الذي اتهم بالتخطيط لهجمات ضد الدولة. وحكم على الآخرين، بما في ذلك “الفخراي” بالسجن مدى الحياة، وفي مصر يقدر السجن مدى الحياة بـ 25 سنة.

بعد صدور الحكم بسجنه مدى الحياة، كُتِبَتْ لـ "الفخراي" على (فيسبوك) "على الأقل لا تزال تستطيع الوصول إلى الإنترنت" فأجابني: "أنا لن أتخلى عن المواجهة... وفي النهاية، سأنال حريتي من جديد... سنة أو سنتان أو حتى ثلاث سنوات، في النهاية سأنال حريتي، وذلك لأن تهمة ملفقة... ليس هناك أي دليل يدينني، وبالتالي، فالحكم سيُلغى عما قريب".

وعموماً، كان "الفخراي" على حق، ففي كانون الأول/ديسمبر 2015م، ألغت محكمة الاستئناف الأحكام الصادرة ضده، بسبب عدم كفاية الأدلة، وأمرت بإعادة المحاكمة. وفي المحاكمة الثانية، التي بدأت في شباط/فبراير، قال محامي "الفخراي"، "أحمد حلمي"، إن النيابة العامة لم تقدم أي دليل ضد "الفخراي"، ليُحفظ سجل استجوابه.

أفضل سنوات حياتك

يعيش والدا "الفخراي" في شقة في الطابق الخامس من مبنى يقع على هضبة صحراوية خارج القاهرة. عندما زرتهم في شباط/فبراير سنة 2016م، كانت والدته تستعد لزيارته في اليوم التالي. كان المطبخ رأساً على عقب، فأمه أمضت يوماً كاملاً تطبخ لولدها. إذ إن السجناء غالباً ما يعتمدون على الأكل الذي تجلبه لهم عائلاتهم.

عائلة "الفخراي" كانت تحضر له ما يقارب 20 رطلاً من اللحم البقري، أو 12 عشة دجاجة مشوية؛ لإطعام ابنها ورفاقه في الزنزانة. أما والده "أحمد"، فقد كان يرتدي قبعة من الفرو، ويفرك يديه بسبب البرد القارس. وفي آخر زيارة له، أخذ والداه معهما ثياباً شتوية لابنهم ولزملائه، وعندما وقعت الثياب في أيدي الحراس، قال أحدهم: "أوه، هذه الثياب جميلة جداً". وهو ما يشي بأنهم سيأخذون البعض منها لأنفسهم.

في يناير/كانون الثاني 2016م، كانت حالة "الفخراي" من سيء إلى أسوأ؛ فقد تم نقله من سجن "طرة" إلى سجن "وادي النطرون"؛ ليبعدوه عن رفاقه، وليواجه ظروفًا قاسية. رفض الحراس، قطعياً، السماح لوالديه بجلب المواد الغذائية والملابس له، وفي بعض الأحيان حرموهم حتى من رؤيته. كما أكد أنه لم يستطع الحصول على هاتف ليتصل بعائلته وصديقه.

وفي فترة جلسات الاستماع، نُقل "الفخراي" إلى سجن "العقرب"، سيء السمعة، وهو عبارة عن مرفق يخضع لحراسة مشددة، مع ظروف قاسية وبائسة.

وفي "العقرب" تدهورت حالته العاطفية بشكل حاد، وقال والده أنه "في آخر مرتين زرناه فيها كان حزيناً جداً، فقد كان يبكي كثيراً. وقال لنا أنه لا يريدنا أن نزوره ونراه وهو تعيس".

صرح "سلطان"، الذي أفرج عنه سنة 2015م، عقب دخوله في إضراب عن الطعام وتنازله عن جنسيته المصرية، أن السجن "بمثابة مقبرة لأي شخص يقبع فيه"، وحصولك على هاتف يكون بمثابة "حصولك على شريان الحياة". ومن دونه لجأ "الفخراي" إلى تهريب الرسائل.

وقال “سلطان” إن الجزء الأصعب من السجن “هو مرور أفضل سنوات حياتك أمامك، فتحس بأنها سُلبت منك وأهدرت، فبدلاً من إحراز التقدم في حياتك المهنية، وإقامة علاقات جديدة، والزواج والإنجاب، تجد نفسك بين أربعة جدران. وأظن أن هذا الشعور هو الذي زاد من سوء حالة “عبد الله”. فلم يتوقع أي أحد أنه سيظل كل هذا الوقت في السجن؛ فالكل ظنَّ بأنها مجرد حملة وستنقضي”.

في الواقع، تعج سجون مصر بالمساجين، والآلاف منهم من المساجين السياسيين، الذين اعتقلوا منذ الانقلاب الذي حصل سنة 2013م. وفي التقرير الصادر عن “الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان” ومقرها القاهرة، فإن قرابة 60 ألف سجين سياسي يقبع حالياً في سجون مصر.

بالتالي، فإن القمع الدموي الذي تمارسه الحكومة يغذي تمرد الجهاديين، وهو ما دفع البعض للتفكير بأن السجن الجماعي للمعارضين مع المتطرفين الإسلاميين، يمكن أن يجعل السجون المصرية أرضاً خصبة لظهور موجة جديدة من الجهاديين. ولكن هذه ليست حالة “الفخراي”، ففي الرسالة التي كتبها بخط اليد، والتي تسلمتها في تشرين الأول/أكتوبر الماضي قال “الفخراي” إنَّ التغييرات التي يواجهها في السجن ليست واضحة، ولن تكتشف إلا عقب إطلاق سراحه. لكنه مر ببعض “التحولات النوعية”، فالأيام التي قضاها في السجن علمته أنّ “الحرية هي الحياة، وهي تستحق الكفاح من أجل الظفر بها”.



الوصف: الصورة التي أرسلها “الفخراي” لـ “سلطان” من زنزانته في سجن طرة في نيسان/أبريل 2015م، غداة حكم المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة.

كما أضاف “تخيل أنك تمر... بهذه التجربة الاجتماعية لثلاث سنوات متتالية، في غرفة صغيرة مع 30 شخصاً، يمثلون جميع الأطياف الاجتماعية. والمثير للدهشة هو أن السجن علمني كيف أتعامل مع الأشخاص، بغض النظر عن التسلسل الهرمي الاجتماعي”.

في أيلول/سبتمبر 2016م، دخل “الفخراي” في إضراب عن الطعام، وبقي يعيش على الماء والسكر، وذلك احتجاجاً على عدم حصوله على العلاج الطبي اللازم، إذ إنه كان يعاني من تورم في ساقه، وهو ما صعب تحركه. وفي رسالة كتبها في أواخر أيلول/سبتمبر قال إن المسؤولين في السجن رفضوا الطلب الذي قدمه بضرورة نقله إلى المستشفى، لتشخيص المرض الذي يعاني منه. وبعد دخوله في إضراب عن الطعام، انخفض وزنه من 175 رطلاً إلى حوالي 110 أرطال فقط.

أما في الرسالة التي كتبها لصديقه في أوائل شهر تشرين الثاني/نوفمبر، فقد أخبرها بأنه قد كسر الإضراب جزئياً، وذلك ليأخذ مسكنات الألم، وبسبب تدهور حالته الصحية، أوقف “الفخراي” إضراب الجوع في بداية شهر أيلول/سبتمبر.

كان للسجن تأثير كبير على “الفخراي”، إذ قال لي في الرسالة التي كتبها في تشرين الأول/أكتوبر “قبل

ثلاث سنوات، لم يكن الإفراج عني من أولوياتي، بل كنت أطمح في استرداد الشعور العام بالحرية من جهة، وبحرية الرأي والتعبير من جهة أخرى. لكن، بعد ثلاث سنوات من السجن غير القانوني... أكبر آمالي هو أن يطلق سراحي، أن أتحرر من المظالم والظالم، على الرغم من أنني أعلم جيدا أن خروجي من السجن لن يمنحني الحرية التي أطمح إليها، والتي كنت أتمتع بها سابقا”.

من جانب آخر، فإنّ الصراع الذي يخوضه “الفخراي” لم ينقص من حماسته؛ فقد كتب: “بشكل غير متوقع، ورغم كل الصعاب، الثورة المصرية لا تزال سائدة في روح الشباب المصري. إنّ النظام ما زال يشعر بالتهديد؛ فالشباب المصري مستعد في أي لحظة ليقوم انتفاضة جديدة”.

على الرغم من أن اليوم الذي سيسقط فيه النظام في مصر يبدو بعيد المنال، إلا أن “الفخراي” قال بأنه يتطلع إلى المستقبل على أمل أن يحقق انتصارا شخصيا وسياسيا. فخلال فصل الصيف، كتب “الفخراي” “شاكرا” سلطان: “إن القلم غير قادر على وصف مشاعري في هذه اللحظة. فمشاعري مختلطة بالفرح والسعادة. السعادة لأنك حر طليق، وتستطيع الزواج، بينما أنا ما زلت مسجوناً. والفرح لأن الله باركك”. كما سأل الله أن “يمن عليه بالحرية في أقرب وقت ممكن، وأن يسمح له بالزواج من الفتاة التي أحبها” وأنهى رسالته برمز الوجه السعيد.

المصدر: [فورين بوليسي](#)

رابط المقال : <https://www.noonpost.com/16245/>